في سبيل الله!

للأستاذ محمد محمود زيتون

«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم، وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره. والله لا يهدي القوم الفاسقين» قرآن كريم

القتال غريزة في البشر، لا معدى عنها، ولا مفر منها، ولو تركت الغرائز وشأنها انهدم سلم التربية، وارتكست الإنسانية في مهاوي الضلال من غير أن تقوم لها قائمة، ولكن الإسلام الحنيف كفل للنفس منافذ الطموح إلى العزة والشرف، فهذب الغرائز، وارتفع بها على خير وجه مسنون

وليس أدل على ذلك من علاجه لغريزة القتال، وتوجيهها نحو المثل الأعلى لصالح الفرد والجماعة، فلم يترك أمامها باب شر إلا أوصده، ولا منفذ خير إلا سلكه، وصدق الله العظيم: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم»

ومن هنا كان القتال الإسلامي ذا صبغة خاصة لم نعهد لها شبيها في الأمم قديما وحديثا، وذلك لأنه لا ينتهج سبيل الفتك والطغيان، ولا يتذرع بالعصبية والحزبية، بل يمضي في خط مستقيم لا عوج فيه، سليما في بدايته ونهايته، شريفا في مبرراته وغاياته، سديدا في خطواته ومشكلاته، فلا عجب أن يكون «الجهاد» معهدا عاليا للتربية المثلى، تبذل فيها النفس جهودا شاقة بكل ما لديها من جوارح، وتمتحن فيها الغرائز الأخرى مجتمعة ومتفرقة: من تملك للدنيا، وتمسك بزخرفها، إلى الحرص على صلة الدم من عصابة وقرابة وجوار

وذلك السبيل لن يكون فريدا إلا إذا تناسقت هذه القوى سالبها وموجبها على سواء بحيث تنأى عن النقص والهون، وتنهض على أساس من التضحية والتخلية والفداء والصبر. وهذا هو الجهاد في سبيل الله، وهو شريعة لها خصائصها وميزاتها، ودعوة لها فلسفتها ومناهجها، تقوم الأجيال وتقعد

منتقلين إلى ترجمة طائفة فطائفة من المصطلحات التي تشترك في أصل الاشتقاق وتختلف في الضافات، عامدين بعد ذلك إلى النحت فيما لا يترجم إلا بوسيلة من المصطلحات الأجنبية المنحوتة؟ كأن نترجم مثلا كاسعة «Ology» التي تنتهي بها أسماء أكثر العلوم في اللغات الأجنبية باستعارة الأصل العربي لكلمة لغة، وهو لغو أو لغي. أو باستعارة لغة نفسها متذرعين لذلك بأن اللغة قوام العلم، إذ ما من علم إلا بلغة.

ثم نترجم أداة التذييل الدالة على مشتغل بعلم أو ما في حكمه في مثل «Botanist» و «Zoologist» بحرفي الياء والتاء المنتهية بهما كلمتا عفريت ونفريت، مبالغة من عفر ونفر، فنقول مثلا «نباتيت» و «حيوانيت» بدلا من عالم بعلم النبات أو عالم بعلم الحيوان، الذي لا نستطيع بداهة أن نسميه «حيوانيا» وإن لنا إن شئنا أن ننسج على هذا المنوال عند الاقتضاء مجالا فسيحا.

أيها السادة:

لنضع نصب أعيننا في اضطلاعنا بما نحمل من أمانة اللغة أقوالا ثلاثة حكيمة: أولها قول الجاحظ: ما على الناس شيء أضر من قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئا. وثانيها قول أبي عثمان المازني: إذا قال العالم قولا متقدما فللمتعلم الاقتداء به، والانتصار له، والاحتجاج بخلافه إذا وجد إلى ذلك سبيلا، وثالثها ما جاء في كتاب نقد النثر: كل من استخرج علما أو استنبط شيئا وأراد أن يضع له اسما من عنده، ويواطئ عليه من يخرجه إليه، فله أن يفعل ذلك.

وبالله مهتدانا إلى قصد السبيل.

أحمد عمار

وما تزال للجهاد الإسلامي روعته وقوته ، ومهما ترتد الأذهان الكليلة الهزيلة إلى القصد والرشاد

ولو حشدنا أمام الإسلام جيشا جرارا قوامه كل ما فى الفئات من كلمات استفهامية تدور بالخلد سرا وجهرا للتزود من ذخيرة هذا الجهاد ، ولتثبيت الإنسان الكريم على قواعد العزة لكان للاسلام المكانة التي لا يتطاول إليها رأى أو مبدأ أو فلسفة أو زعامة ولو كان أصحابها بعضهم لبعض ظهيرا

متى نجاهد ؟ وكيف ؟ وعن ؟ ومن . . وبكم ؟ وفيم ؟ وبم ؟ ولم ؟ وأى فى سبيل الله ؟ . . هذه كلها يستجيب لها الإسلام فى هدوء ومضاء ومن غير تمتر

والاسلام يتمشى مع طبيعة الأشياء حين يفترض فى الجهاد أن يتصل ولا ينفصل ، وأن يدوم مع الحياة الفردية والجماعية من المهد إلى اللحد . وهذا ما يؤكده منطوق الآية الكريمة فى حكمها المطلق « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وقوله تعالى « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال »

والارهاب هنا أمر مفروض ، وصفة لازمة لا تبرح المسلم أبدا ، ولا ينبغى له أن يتخلى عنها يوما دون آخر ، ولا يأتيها لظرف طارئ ويدعها من بعده ، ونصدق فى هذا أحاديث النبى الكريم « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » والجهاد هنا على العكس من الهجرة ، إذ يقول الرسول الأعظم . « لا هجرة بعد الفتح ولكن نية وجهاد » ولقد حسب المسلمون — بعد تبوك — أن الجهاد قد انقطع فأخذوا يبيعون أسلحتهم لأهل الغنى والفضل ، فنهاهم عن ذلك رسول الله وقال « لا تزال عصابة من أمتى ظاهرين يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال » ولن يخرج الدجال إلا فى آخر هذا الزمان ، يوم يرث الله الأرض ومن عليهـا

ذلك بأن الجهاد من أشد مظاهر الايمان لصوقا بهذا الدين المتين ، وهو — على التحديد — أقرب ما يكون إلى دستوره ومصدر تشريعه ، فالنبي يقول « من تعلم القرآن ثم نسيه فليس منى » وكذلك يقول « ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله . فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » ويقول « علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل »

هذا الجهاد إذن لا مقطوع ولا ممنوع ، بل هو موصول غير مفصول ، وذلك ما تقتضيه قوانين علم النفس فيما يتصل بخصائص الغريزة ، وهى التى لا سبيل مطلقا إلى هدمها أو تعطيلها لأنها قوة محركة للسلوك ، ولن يظفر الانسان بنعمة « العافية الاجتماعية » إذا تخلى عن قوة الدفاع عن النفس ، وهذا ما يجرى فى دمه ، وهو يدفع جيوش الميكروبات الوافدة ، ويصدها عن كيانه الحصين

والمجتمع كالفرد كلاهما لا غنى له عن الدفاع ضمانا للبقاء ، ويوم يتخلى الكائن الحى عن مقومات صراعه مع الفناء ، تنمحى مظاهر وجوده وتنهدم أسباب حقيقته ، فلا عجب إذا كان الجهاد من ألزم ما يلزم المجتمع السليم الذى دعائمه الراسخة حقائق دين الله

والجهاد يستجيب لدواعى الخلود حين يستخف المجاهدين إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فيها الثواب المدخر ، والجزاء المنتظر ، لكل من خلص نفسه من مثقلاتها وموبقاتها ، ولن تستقيم دعوة إلى خير وحق إلا إذا اقترنت بالترضية والجزاء الوفاق ، والتخويف من المرتع الوخم الذى تتردى فيه الشهوات بأصحاب الرذيلة ، وهذا الإعلاء فى غريزة القتال هو ما يسميه رسول الله بالجهاد الأكبر ، وما أشقه على النفس

وتحرير الوطن من الغاصبين من صميم رسالة الجهاد فى الاسلام « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف » والتمكين فى الأرض مقرون بالعقيدة العلمية والعملية ، الدافعة الرافعة معا « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا : ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا . فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين »

ولقد أعد الله تعالى للشهداء فى سبيل الله الجزاء الأوفى .

بعد أن اتجروا مع الله وباعوا له أنفسهم وأنفقوا فى سبيله أموالهم « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم »

والحرص على الحياة لا يرتفع بها عما تردت فيه ، ولهذا قيل « احرص على الموت توهب لك الحياة » من غير مبالاة بشيء من هذا الحطام الفانى . كما يقول الشاعر المجاهد فى سبيل الله :

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله ، وإن يشأ ... يبارك على أجزاء شلو ممزع

وهذا عبد الله بن الزبير يتلقى الدرس من أمه أسماء بنت الصديق ، وهو فى طريقه إلى قتال الحجاج بن يوسف ، فرعون زمانه ، إذ دخل ابن الزبير على أمه يوم مقتله ، وقد رأى خذلان الناس له فقال لها :

يا أمه ، خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ؛ والقوم يعطوننى من الدنيا ، فما رأيك ؟ فقالت ذات النطاقين لابنها :

يا بنى ، أنت والله أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق ، واليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن رقبتك يتلاعب بها غلمان بنى أمية . وإن كنت أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ! أهلكت نفسك ، وأهلكت من قتل معك . وإن قلت : كنت على حق ، فلما وهن أصحابى ضعفت ، فليس هذا من فعل الأحرار ولا أهل الدين . وكم خلودك فى الدنيا ؟ .. القتل أحسن

قال عبد الله : إنى أخاف إن قتلونى أن يمثلوا بى .

فقالت : يابنى إن الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها

فدنا منها وقبل رأسها وقال :

هذا والله رأيى والذى قمت به داعيا إلى يومى هذا ، ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدتنى بصيرة مع بصيرتى ، فانظرى يا أمه ، إنى مقتول من يومى هذا فلا يشتد حزنك ، وسلمى الأمر لله فان ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عمل بفاحشة ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندى من رضا ربى . اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفسى . أنت أعلم بى ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى .

فقالت أمه : إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا إن تقدمتنى ؛ وإن تقدمتك ففى نفسى حرج حتى أنظر إلام يصير أمرك .

فقال ابن الزبير : جزاك الله خيرا ، فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد

فقالت : لا أدعه أبدا ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق . اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبى . اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين

وقاتل عبد الله بن الزبير حتى قتل ومعه صفوة من أصحابه ، فقطعت رءوسهم جميعا ، وبعث بها إلى الحجاج فى المدينة ، ونصبت للناس وعبثت بها الأيدى الملوثة

وفى الجهاد الإسلامى تنطلق النفس من عقال الحياة لتسبح فى ملكوت حر فسيح ، كما أنها تنبثق من طاقة خصبة هى الحق ولا شيء سواه

هذا ما يستمسك به الزبير بن العوام وهو فى موقعة صفين إذ يقول :

« والله لو هزمونا حتى أوصلونا سعفات هجر ، لعرفنا أننا على الحق وأنهم على الباطل » وهذا عمر بن الخطاب ، وهو ما يزال حديث عهد بالإسلام ، والنبى ما يبرح مستخفيا بدعوته فى دار الأرقم فيقول :

— يا رسول الله ، ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟ فيقول النبى : « بلى ، والذى نفسى بيده ، إنكم على الحق إن متم وإن

obeikandl.com

حيثم » فيقول عمر : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق ، ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف . والذى بعثك بالحق لنخرجن . يا رسول الله . لا ينبغى أن تكتم هذا الدين ، أظهر دينك ، والله لا نعبد الله سرا بعد اليوم

وخرج الرعيل الأول من المسلمين وعدتهم أربعون فى صفين يتقدمهما حمزة وعمر ، كلاهما متوشح سيفه ، والغبار يثور حولها ، وللجمع كديد ككديد الطحين ، وهم يطوفون بالكعبة ، يرهبون عدو الله وعدوهم ، وقد أخزاه الله بعد أن رأى ما رأى ، وأصبحت القلة التى على الحق تقرأ القرآن جهرة ، وتصلى بالمسجد علنا ، وأنف الكثرة فى الرغام

سأل أعرابى رسول الله : إن الرجل يقاتل للذكر ، ويقاتل ليحمد ، ويقاتل ليغنم ، ويقاتل ليرى مكانه ، فأيهم فى سبيل الله؟ فيقول عليه السلام : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله

الحق إذن هو الباعث على الجهاد وهو بالتالى غايته ومرماه ، أى أنه يدفع بأصحاب الدين إلى أعلى ، ويجذب أصحاب الدنيا من أسفل ، لهذا فهو وحدة تامة لا تتوزع ولا تتعدد ، « فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال » ، وليس من الجهاد أن نقاتل عن حسب أو نسب أو عصبية ، بل ما ارتضاه هذا الدين لأهله من الاتحاد « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص »

من أجل هذا الصف المتسق الملتصق . . حكم رسول الله على « قزمان » بأنه من أهل النار ؛ وهو عديد بنى ظفر وقد حرضته نساؤهم على القتال مع المسلمين يوم أحد ، فأخذ سلاحه ، وجاء من خلف الصفوف حتى كان فى الطليعة وظفر بعشرة من أصحاب الألوية المشركة صرعهم جميعا واحدا بعد الآخر ، وأخذ يقول « دافعوا عن الأحساب والأنساب » ولما أثبتته الجراحة بشره المجاهدون بالجنة فسخر منهم وقال « والله ما قاتلت على دين ، ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا حتى تطأ سعفنا . ويقول : يا للأوس ، قاتلوا على الأحساب واصنعوا مثلما أصنع ، وأخيرا انتحر منافقا ، فلما ذكر للنبى قال « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »

ومن أجل هذا الصف المتساند المتعاضد . . يصمد مصعب ابن عمير أمام الفئة الباغية يوم أحد وقد تفرق شمل المسلمين وأشاع ابن قميئة أن محمدا قد قتل ، وانفض عنه من كان معه ، فيدعوهم مصعب فيتذرعون بقتل محمد للفرار فيقول لهم « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » ويتنزل بذلك القرآن الكريم

ومن أجل هذا الصف الواحد المتحد « يأبى النبى كتيبة خشناء لابن أبى بن سلول قوامها أمثاله من المنافقين وأحلافه من يهود ، فيردها النبى قائلا : « لا نستعين بأهل الشرك على أهل الشرك » والله تعالى يؤيده « يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »

ومن أجل هذا الصف المنتظم المنسجم . . يرد النبى يوم بدر خبيب بن يساف ، وقيس بن الحارث عن القتال فى صفوف المسلمين ، لأنهما على غير دين الله ، ولا يبغيان غير الغنيمة ، وهما فى القتال أعظم غناء وأشد نكاية ، ولكن النبى يقول لهما « لا يخرجن معنا رجل ليس على ديننا » ويأبى عليهما القتال حتى يسلما . فلما أسلم خبيب قال له النبى : امض ، أما قيس فقد تأخر إسلامه إلى أحد »

ومن أجل هذا الصف المتشابك المتماسك . . يؤخر النبى — يوم بدر — الأنصار ليقدم المهاجرين السابقين إلى الإسلام وهم عشيرته ، ويقول لهم « يا بنى هاشم قوموا فقاتلوا عن دينكم الذى بعث الله به نبيكم ، إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا به نور الله » فوثبوا إلى الجنة سراعا ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم

ومن أجل هذا الصف الرابط المترابط . . يسابق المسلم أخاه وأباه وابنه وخاله إلى الجنة . . فينافس سعد بن خيثمة أباه ، ومعوذ بن الحارث أخاه عوف وهما غلامان على جانبى عبد الرحمن ابن عوف يوم بدر يتربصان لأبى جهل فرعون العرب . ويركض عمرو بن الجموح بعرجته وعبثا يحاول أولاده الأربعة أن يثنوه عن عزمه وقد عذره الله ، ولكنه يتوق إلى الجنة ويسأل الله أن

يرزقه الشهادة وإلا يرده إلى أهله خائبا . ويستأذن أبو بكر قائده في أن يقتل ابنه عبد الرحمن ، وعبد الله ابن رأس النفاق يسأل النبي أن يسمح له بقتل أبيه ، وسعيد بن العاص يتجلد إذ يرى أباه صريع الشرك ، وعمر بن الخطاب يصرع خاله العاص بن هشام ، ومصعب بن عمير يأمر بالتشديد في فداء أخيه الأسير في يد المسلمين ، وسعد بن أبي وقاص تراوده أمه عن إسلامه وتمتنع عن الطعام والشراب حتى يكفر ، فلا يعبأ بها وهو لها الابن البار « وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما »

ومن أجل هذا الصف المتكامل غير المتفاضل .. يقف أصغر المجاهدين علي بن أبي طالب إلى جانب أكبرهم سنا أبي عبيدة ابن الحارث ، ولا فارق بين حمزة القرشي وبلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي ، ولا بين المهاجري والأنصاري ، كل وبلاؤه « إن كان في الساقة كان في الساقة ، وإن كان في الحراسة كان في الحراسة » والأنفال تقسم بما أمر الله بين الضعفاء والأقوياء على السواء ، لكل منها نصيب حسب جهاده ، فالمشاة والرماة والسقاة ، والقادة والسادة ، والركبان والعبدان جميعا في درجات مرتبة في الحياة والموت ، فقد كان النبي يقدم في دفن الشهداء أعلمهم بدين الله وأقرأهم للقرآن

ومن أجل هذا الصف الزاحف الجارف .. كانت المرأة تسقي الجرحى ، وتضمدهم وتعولهم بالذخيرة ، وتترى عن رسول الله ، وتحمي الظهور ، وتدفع بأفلاذ كبدها إلى الفردوس الأعلى ، وتحتسبهم جميعا عند الله ، ولا يهمها إلا أن تسأل عن سلامة رسول الله ، وجيش حزب الله

ويدعو النبي إلى الجهاد بينما عمير بن الحمام بيده تمرات يأكلها ، فيخشى أن تعوقه عن الجنة ، فيرميها ويقول : ويحكن ، والله إن بقيت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، ويرتجز :

ركضا إلى الله بغير زاد إلى التقى وعمل المعاد
وكل زاد عرضة النفاد غير التقى والبر والرشاد

وفي سبيل الله .. يتعطل ركن من أركان الدين ، كما أمر النبي بالإفطار في رمضان وهو في غزوة بدر ، وأمر بتأخير العصر حتى يدرك بني قريظة في غزوة الأحزاب

وفي سبيل الله .. تتحرك القلة المؤمنة لتقاتل الكثرة المشركة ، « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » ويقاتل المسلم بما معه والله ناصره ، فقد رمى سعد بن أبي وقاص بعرجون فارتد سيفا! وكذلك عبد الله بن جحش وعكاشة بن محصن ، والعبرة بالإيمان لا بالسلاح ، إذ تعجب المسلمون من سيف الزبير بن العوام يوم الخندق وقد ضرب بسيفه نوفل بن عبد الله بن المغيرة فشقه نصفين ووصلت الضربة إلى كاهل فرسه فقال : والله ما هو السيف ولكنها الساعد

وثبت الله المجاهدين في سبيله بالملائكة والريح والمطر والنعاس أمنة منه وظلوا على الحق ظاهرين حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، إذ يقول نبي الجهاد « لا يبقين دينان بأرض العرب » ومن أجل هذا يكون الجهاد في سبيل الله

محمد محمود زيتون

دفاع عن البلاغة

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

كتاب يعرض قضية البلاغة العربية أجمل معرض ويدافع عنها أبلغ دفاع فيذكر أسباب التنكر للبلاغة ، والعلاقة بين الطبع والصنعة ، وحد البلاغة ، وآلة البلاغة . . . الخ .

من فصوله المبتكرة : الذوق ، والأسلوب ، والمذهب الكتابي المعاصر وزعماؤه وأتباعه ، ودعاة العامية ، ودعاة الرمزية ، وموقف البلاغة من هؤلاء وأولئك . . . الخ

يقع في ١٩٤ صفحة وثمنه خمسة عشر قرشا عدا أجرة البريد